طبيعة الفكر والذهن

الاستاذ موكدني

نقلها إلى العربية : حسن السلمان

لا نستطيع ونحن كائنات مفكرة إلا ان نكثر الاهتمام بالظاهرات العقلية التي تنظم انطباعاتنا الحسية بعد ما كانت مشوشة مضطربة . وفي هذا البحث الجديد يكشف الاستاذ موكدني الستار عن طبيعة الفكر والذهن ويلقي نوراً على ما يسمى بجهاز الذهن العامل الاساسي في بناء حياتنا العقلية

هل للانسان كفايات

التفكير او المراس العقلي هو الظاهرة التي تدفعنا الى تحقيق رغباتنا واشباع أهوائنا ، وتثير في نفوسنا حب الاطلاع على الحوادث التي جرت على مرأى ومسمع منا او معرفة ما يحيط بنا او من كانت له علاقة بنا . وكان الأقدمون يعتبرون التفكير عملية غريبة يختص بها الانسان دون غيره من أفراد المملكة الحيوانية لاعتقادهم بوجود « كفايات » خاصة لابناء الجنس البشري دعوها بالعقل او الرشد . أما المعاصرون من السيكولوجيين فلا يأخذون بهذا الرأي لشدة غموضه ولكثرة تعقيده . والتحليل الدقيق يوحي الباحث بأن التفكير ليس بظاهرة ناجمة عن تدريب تلك الكفايات الخاصة ، وانما عن تآلف عوامل فعالة معقدة تؤثر في المستوى الأدنى للحياة العقلية ، أهمها الوعي والتمييز والتذكر والتداعي والتلمس والامعان . ويستدل من قابليتنا لتذكر بعض الحوادث التي جرت فيما مضى من حياتنا على ان الانسان يستطيع حفظ التجارب الماضية . أما كيفية تحقق ذلك فمن الأمور التي ما زالت خافية عنا . وتعتقد فئة قليلة من العلماء بأن الأعمال التي نأتيها والصور التي تمر أمام عيوننا والتجارب التي تجري علينا تحدث تغيرات مكرسكوبية في بناء جهازنا العصبي تدعو الى حفظ تلك الاعمال ولانطباع تلك الصور والتجارب في ذاكرتنا

أما الوعي فناجم عن الافعال المنعكسة الشرطية وحدها . فاسالة لعاب كلب علمت حيوانيته

رائحة طعام شهي ، أمرٌ طبيعي يتكرر حدوثه في جميع الكلاب . ولكن اذا ما سال لعاب كلب في أثناء تقديم طعام له وقرع جرس على مقربة منه ، تكون تلك الاسالة فعلاً مكتسباً شرطياً يتكرر كلما سمع ذلك الكلب صوت الجرس حتى وان لم يقدم له طعام في أثناء ذلك . وبعبارة أخرى ان تكرر التجارب على الكلب كيف من فعاليته وجعله يسلك سلوكاً مغايراً لما طبع عليه سابقاً

الادراك الحسي والاحساس

وماذا يقصد بالتمييز ؟ خيرٌ لنا ان نؤجل الاجابة عن هذا السؤال ريثما يتم لنا شرح حقيقة الادراك الحسي . ان الادراك هو معرفة كل ما في العالم المحيط بنا من بشر وحيوان ومن مواد ، وعما يطرأ علينا من ظروف . وليس الادراك الحسي والاحساس بشيئين معربين عن ظاهرة واحدة ، إذ الفرق بينهما ، وان كان دقيقاً جداً ، على غاية من عظم الشأن . فالاصوات والألوان والروائح وغيرها من المؤثرات التي تدركها بنواحي تأثيرها في أعضائنا الحسية هي ما ندعوه بالاحساسات . أما الادراك الحسي فالظاهرة الفعالة التي تدرك حقيقة هذه المؤثرات او الاحساسات . فاذا ما وخز ذراع انسان مثلاً فالاحساس بالوخز هو الشعور بملامسة الابرة للجلد . وتكون الاحساسات مليئة بالمعاني ممثلة لرموز مشيرة الى الاشياء المحيطة بنا والى الحوادث الجارية أمام عيوننا ، والى كل ما يؤثر فينا . فليصغ القارىء لحظة الى الاصوات التي تطرق سمعه في اثناء قراءته هذا البحث فانه ان اعتبر ما يصل الى سمعه أصواتاً مجردة لامعاني لها فان ذلك ما نسميه « الاحساس بالاصوات » ، ولكن ان عرف ان أحد تلك الاصوات هو صوت بوق سيارة وان الآخر نباح كلب فان معرفته هذه هي الادراك الحسي للاصوات

والتشبيه التالي يوضح تمام التوضيح الفروق بين الاحساس والادراك الحسي . في ردهة تيت علقت صورة تمثل الشارع الايطالي بباريس في أثناء الليل . وهي من ريشة الرسام الايطالي بيسارو . فالواقف على بعد بضع خطوات من هذه الصورة يشاهد ذلك الشارع بألوانه الزاهية وأعمدته الضاءة مصابيحها ، ووجهات الحوانيت وعربات النقل ويتخيل نفسه كأنه واقف في ناحية من نواحي ذلك الشارع الباريسي العظيم . ولكن ما ان يقترب من الصورة حتى تختفي معالم الشارع وتبدو الصورة كأنها مجموعة من البقع الزيتية المتنافرة الالوان

فلو حللت الهيئات والأشكال التي يقع نظرنا عليها ، الى عواملها الاولية لكانت أشبه الاشياء بتلك الصورة الزيتية الغريبة ، واذا ما اعتبرنا تلك الهيئات والاشكال اشياء مادية فسيكون امرها أمر تلك الصورة عندما نشاهد عن بعد بضع خطوات . والواقع اننا عندما

نتخيل الشارع المرسوم في الصورة نرى صوراً أكثر عدداً مما تعكسه لنا اللوحة المرسومة عليها . ذلك لاننا نلاحظ رموزاً عديدة ناتجة عن ترتيب الاصباغ ترتيباً خاصاً . ومرجعنا لتلك الرموز هي الادراك الحسي لصورة الشارع في أثناء الليل . ولو حللنا المثال الآتي — مثال الاصوات — هذا التحليل ايضاً ، لعرفنا ان ما يسمع من الاصوات ليس الا مجموعة من رموز كل منها يشير الى شيء من الاشياء المحيطة بالسامع المؤثرة فيه

ولكن كيف ترمز الاحساسات للاشياء المؤثرة فينا ؟ وكيف يتسنى لنا تعلم الاشياء والحوادث التي تتكرر علينا تأثيراتها . ان وعي الحوادث التي جرت فيما مضى من حياة الانسان أمر على غاية من الشأن فاني لا استطيع التمييز بين صوت السيارة والاصوات الاخرى ما لم أكن قد سبقت لي مشاهدة سيارة ومعرفة الجهاز المحدث للصوت وكيفية التصويت به . كذلك تختلف الاحساسات باختلاف نوعيتها ، وهذا ما يدعو الى تصنيفها اصنافاً مرتبة ترتيباً منظماً . فالرجل الاعمى الذي يعاد اليه بصره فيقع نظره لاول مرة على حقل زراعي واسع لا بد ان يشعر بخضرة الارض وزرقة السماء واتساع المنظر وسعة الحقل وغير هذه من الاحساسات المؤثرة في اعضاء حسه . وليس معنى ذلك ان الانسان يتنبه الى جميع الاحساسات مرة واحدة . فالحيوان الجائع لا يتجه الا نحو الوضع الذي تنبعث منه رائحة طعام ، والوليد الذي لم تمر على ولادته غير بضعة ايام لا يتجه ببصره الا نحو الهيئات البصرية والسمعية — اي نحو وجه امه وصوتها — حتى وان تكن المؤثرات فيه غير هذه من الاحساسات . وعلى هذا نستطيع ان نقرر بان الادراك الحسي ليس الا ظاهرة تمييزية يقوم بها الكائن الحي بداعي الرغبة والفائدة فيتعلم من جراء ذلك أشياء وحوادث وأموراً تكررت عليه تأثيراتها

هيئات الادراك الحسي

ليس من السهل على الانسان التمييز بين الهيئات الحسية المؤثرة فيه — ذلك لان بعضها متداخل ببعض . يتعذر عليه تذكر بعض تلك الهيئات ما لم يتذكر قرائن اخرى مختلفة عن القرائن الاولى . لنتأمل النظر في الهيئة البصرية التي تملأ عالم الطفل في ايامه الاولى — اي صورة وجه امه . فالطفل عندما يبكي لجوع يعتريه ترضعه امه او تطعمه ، وعندما يصرخ من تعب أصابه او من وضع غير مريح وضع فيه ، تسارع امه الى تخليصه من ذلك الوضع المقلق . وفي كل من هذه الحالات يشعر الرضيع بالرضى حالما تتناوله امه بين ذراعيها وبعد ان تتوالى هذه الحالات على الطفل ينتهي عقله الى ربط وجه الام بالتخلص من الجوع او الألم . وبالطريقة ذاتها يصبح

صوت الام هيئة حسية ذات معان خاصة للطفل. وبعبارة اخرى ان حركات من حالة السكينة — صورة الوجه او الصوت عندما يكونان هيئات بصرية وسمعية — يتبعها مقام السكون فيغير انفعالات وسلوكاً ملائماً للسكون.

ان العالم المحيط كثيرة حوادثه ، معقدة اموره وان المعاني البسيطة التي يكتسبها الرضيع لا تجديه نفعاً ازاء تلك الحوادث وهذه الامور . وضرورة الحياة تحتم عليه التمييز بين امر وآخر او بين حادثة واخرى. فالطفل الذي اعتاد اللعب بقطته الصغيرة الاليفة، والذي حاول في احد الايام اللعب مع قطة كبيرة غريبة عنه فخمشته وآذته ، لا بد ان يدرك الفروق بين قطته وغيرها من القطط فيتعلم التمييز بين القطط الاليفة والاخرى المتوحشة . ويلاحظ ان التمييز بين الهيئات الحسية المتشابهة يتم عندما يعجز المرء عن ادراك الفروق بين ما يؤثر فيه من اشياء فيؤدي عجزه هذا الى وقوعه في مشاكل لا ترضيه ولكنها تعلمه كيفية التمييز بين تلك الاشياء

ويتوقف التذكر على الحفظ فلولا الحفظ لما تذكر الانسان شيئاً من الامور التي جرت عليه . فالتلميذ الصغير عندما يسأله معلمه أين مدريد ، يتذكر انها مدينة في اسبانيا ، وعندما يرد على سؤال معلمه هذا لا يتذكر الحقائق الجغرافية حسب بل يتذكر الظروف التي تعلم فيها تلك الحقائق . ومما يجب ملاحظته في هذا الصدد اننا نتذكر بعض وجهات الامور ونتناسى الوجهات الأخرى . فعندما نقوم بعمل تم لنا حذقه كالكتابة او القراءة أو أي عمل من الاعمال التي تمكنا من حذقها، فانا نقوم بسلسلة من الاعمال المشتركة او نتفهم طائفة مترابطة من المعاني . وفي كل حالة من هذه الحالات يتوقف نجاحنا في ما نقوم به من الاعمال على مبلغ تأثير تجاربنا الماضية في أحوالنا الحاضرة . فمثلاً اننا عندما نطالع بحثاً من الابحاث ندرك المعاني المقصودة في البحث لاننا نتذكر المعاني لكل كلمة من الكلمات المختلفة التي نقرأها. وليس من الضروري بل ليس من النافع لنا أن نتذكر الظروف التي تعلمنا فيها معاني تلك الكلمات

والحقيقة ان التذكر ليس الاّ صورة من صور تداعي الأفكار الذي يتم بحسب « ناموس التداعي بالتلازم »[1] القائل بأنه « اذا ما حدث لاحدنا أمران وتكرر وقوع أحدهما فلا بد من تذكر الآخر» . فمثلاً اذا ما صادفت على حين فجأة رجلاً تعرفت به في فرنسا خلال أيام الحرب الماضية ، فانني لا بدّ ان أتذكر حالاً ، سلسلة من الحوادث التي جرت لنا في فرنسا . ولولا هذا التصادف لما تذكرتها أبداً . ولا تتم الملازمة بين الحوادث والوقائع مالم تكن ملائمة لرغباتنا . فاذا ما كنا نكثر الاهتمام بناحية من نواحي العلم الحديث فان

---

(1) Law of Association by Contiguity

كلّ حقيقة من الحقائق المتعلقة بتلك الناحية تدعو الى تذكر حقائق أخرى ذات صلة بها وكلما زادت رغباتنا في الأشياء ، تضاعفت قابلياتنا لتذكر الأمور المرتبطة بعضها ببعض حتى اذا ما تغلبت علينا رغبة طارئة ضعفت قابلية تذكرنا لتلك الأشياء ريثما تتحقق رغباتنا العابرة

أما الامعان والتلمس فيمكن ادراك حقيقتهما من التجربتين التاليتين المتعلقتين بقابلية التعلم عند الحيوانات . وضعت قطة جائعة في قفص تستطيع منه مشاهدة الطعام دون الوصول اليه ؛ ولا تتمكن القطة من الخروج من القفص ما لم تتحرك حركة خاصة فتدفع مزلاجاً فينفتح باب القفص . وقد حاولت القطة بشتى الطرق التخلص من القفص فكانت تارة تسعى الى قطع أسلاك القفص بأسنانها وأخرى تضرب الباب بمخالبها . وعلى حين غرة وبدون قصد تحركت الحركة المقصودة فضربت المزلاج فانفتح باب القفص . وبعد أن أعيدت التجربة مراراً على تلك القطة بدأت تتعلم كيفية دفع المزلاج وفتح باب القفص للتخلص من حبسها رويداً رويداً . ويستدل بهذه التجربة على ان التلمس عامل أساسي من عوامل ظاهرة التعلم دون ان يكون للقصد دخل في تلك الظاهرة

والتجربة الأخرى التي تكشف القصد من الامعان هي التجربة التي أجراها الاستاذ كولر(١) على الشمبانزي ، المار شرحها في بحث « المذاهب المتباينة في علم النفس الحديث » فلا نرى ضرورة لايراد تفصيلاتها في هذا البحث مكتفين بالاشارة الى ان تعلم الشمبانزي تركيب قطعتي العصا للحصول على قطعة الموز المعلقة جاء عن طريق الامعان وليس بواسطة التلمس

ولنعد الى البحث في طبيعة التفكير ، ولنفرض اننا سئلنا عن اسم تاريخي ذائع الشهرة قوامه خمسة حروف ، أولها (س) ، وثالثها (ر) ، وآخرها (ط) . فاذا نفكر على هذه المشكلة لحلها حتى تتبادر الى ذهننا عدة كلمات تتوافر فيها بعض هذه الشروط . وكما لا يخفى ان الباعث على اثارة هذه الكلمات في ذاكرتنا هي الرغبة الملحة في استخراج الاسم المطلوب . وبعد محاولات متعددة ، لا بد اننا منتهون الى تذكر كلمة (سقراط) الكلمة التي تتوافر فيها جميع الشروط وهي الحل الصحيح للمسألة . يعطينا هذا المثال البسيط صورة جلية عن علاقة التلمس والتمعن في التفكير . ففي بادىء الأمر يكون التلمس الصفة الغالبة على تفكيرنا ولكن بعد ان تؤدي كل مرحلة من مراحل التلمس الى تمييز بعض مظاهر المشكلة المراد حلها ، وبعد ان يتزايد التمعن في الكلمات لا بدّ ان يصل الفكر الى الحل الصحيح للمشكلة التي استهدف حلها . ومدى الزمن الذي يستغرقه الشخص العادي إلى حلّ مشكلة من المشاكل مرتبط بمبلغ قابلياتنا لحفظ الحوادث الماضية ومبلغ قدرتنا على تذكر تلك الحوادث

(١) Kohler

المعاني الكلية

إن المعاني الكلية من أهم العناصر الاساسية في التفكير. فكلمة «كلب» مثلاً تحمل معنى كلياً لحيوان خاص. وليس من الضروري أن تنفرد هذه الكلمة بنقل المعنى الكلي لذلك الحيوان فقد تطلق عليه كلمة Dog الانكليزية أو كلمة Chien الفرنسية أو كلمة Hund الألمانية. وليست الكلمة ذاتها المعنى الكلي لذلك الحيوان وانما المعنى الذي تتضمنه أو تشير اليه تلك الكلمة. فالمعاني الكلية هي معان لا تشير الى أشياء خاصة وانما الى أشياء عامة أو الى أصناف من الأشياء أو الى صفات عامة في الأشياء كالحلاوة والصلابة والناس والحيوان والنبات الخ. وقابلية ابتكار المعاني الكلية هي في الأصل قابلية تحليل بعض الحالات الواقعية وتمييزها عن كل حالة أخرى شبيهة بها. فكلب الصيد حيوان يختلف عن كلب الشارع ولكن كلا الحيوانين يشترك في بعض الصفات العامة التي تجمع بين الحيوانين وترجعهما الى فصيلة واحدة من فصائل الحيوان. ونستطيع بعد هذا ان نقول ان ظاهرة تكوين المعاني الكلية للاشياء هي ظاهرة تمييز بعض الصفات وتفريق الروابط العامة التي في عالم الحوادث والاشياء والحيوان

وليس تكوين المعاني الكلية من الامور البسيطة السهلة، فان تاريخ الفكر في الواقع هو تاريخ الأخطاء التي تعرض لها هذه الظاهرة. ولسنا مغالين اذا ما قلنا إن التفكير العلمي ظاهرة من ظواهر التخلص لاحلال المعاني الكلية الملائمة المعبرة عن بعض الحوادث الجارية، محل المعاني التي كان يتصورها الانسان البدائي. ومن المهم أن يلاحظ أن ليس في التفكير العلمي ثمة «كفايات» عقلية خاصة كما كان يظن سابقاً. فالفرخة التي تأبى التقاط يساريع شائكة، بعد أن علمتها التجارب عدم صلاحية تلك اليساريع للأكل، تظهر قابلية تمييز بعض أنواع اليساريع عن غيرها أو الاستجابة لطائفة من الصفات المشتركة بين بعض أفراد هذه الطائفة من الحيوانات. والفأر الذي درّب على التحرك حركة خاصة عندما يوضع على أرض بياض مثلثة الشكل ولا يتحركها عندما يوضع على أرض سوداء، سيتعلم التفريق بين الاشكال المثلثة وغيرها من الاشكال، وكذلك التمييز بين الأرض السوداء والارض البيضاء. والعالم المفكر الذي يستطيع وضع معاني كلية الجاذبية الارضية — كنيوتن — يمارس قابلية كانت كامنة في المستوى الادنى للحياة العقلية

نوعا التفكير

ترتكز ظاهرة التفكير على قابلية تمييز الفروق وملاحظة الصفات المتشابهة المؤدية الى تكوين المعاني الكلية للاشياء. والتفكير نوعان: الاستقراء ويقصد به الوصول الى القواعد العامة

بعد جمع الحقائق الخاصة ، والاستنتاج ويعني به البدء بالقواعد العامة ثم الانتقال منها الى الحقائق الخاصة . والتفكير الاستقرائي ، كما يبدو لاول وهلة ، ليس من الامور العسرة التي تتطلب جهداً كبيراً . فقد توجد بقوته حالما يتنبه المرء الى تكرر حدث واحد مراراً في ظروف معينة . فالطفل الذي يتجنب النار لانها احرقت اصابعه من قبل تتولد في مخيلته بكيفية استقرائية حقيقة عامة هي ان النار تحرق الانسان فعليه تجنبها . وليست هذه الحقيقة العامة قانوناً يردده الطفل لنفسه كلما لاحظ ناراً ، وانما هي فكرة تجول في مخيلته فتمنعه من ملامسة النار . ويقرر ماكدوجل « ان الميل لوضع قواعد عامة بأسلوب استقرائي ظاهر في جميع أدوار الحياة العقلية . ففي المستوى الادنى للحياة العقلية يكون ميلاً للاستجابة الى أشياء تبدو منها إشارات حسية متشابهة كأنها شيء واحد يؤثر تأثيراً متكرراً . ولما كان العالم مليئاً بالاشياء التي تصنف تصنيفاً طبيعياً فان كلاً من هذه الاشياء الطبيعية يكون في منزلة اشارة حسية شبيهة بالاخرى .... ولهذا الميل منزلة عالية في تطور التفكير ، فهو المصدر الاساسي لجميع نواميسنا العلمية ، وان أدى الى بعض الاخطار أحياناً » .

أما التفكير الاستنتاجي فهو اقرار ضمني يقره الشخص دون ان يجهد نفسه للاستيثاق من صحته . فاذا ما شاهد القارىء طيراً أبيض حائماً فوق سطح الماء وصرخ « هذا نورس » فلا بدَّ أن تكون ثمة قاعدة عامة مستقرة في طيات عقله تتلخص في أن كل طير كبير أبيض يسكن قرب الماء ويطير على سطحه هو نورس . وهذا ما جعله يستنتج ان ذلك الطير الابيض نورس . ويمكن تصوير التفكير الاستقرائي بالمثال التالي : « كل (س) = (ص) . ولما كان هذا (س) فلا بدَّ ان يكون (ص) أيضاً » . وقد رافق هذا الاسلوب من التفكير الحياة العقلية في جميع أدوارها المختلفة مع انهُ كثيراً ما ذهب بالمفكرين الى الزلل والشطط . والحقيقة انهُ لا يمكن ان يتبع بصورة صائبة ما لم يبلغ المفكر المستوى الاعلى للحياة العقلية ، أي عندما يستطيع التمييز بين الفروق الدقيقة ويتمكن من حصر هذا الاسلوب من التفكير في الاشياء والحالات المتشابهة تمام التشابه

طبيعة اللغة

لم تخص الطبيعة الانسان وحده بالتصويت فهناك عدد من الحيوانات التي تعبر عن انفعالاتها النفسية بأصوات خاصة كنباح الكلاب وخوار الثور وتغريد الطير وزئير الاسد . غير ان استعمال الاصوات لتسمية الاشياء وللتعبير عن الحوادث الجارية من الامور التي ابتكرها الانسان وحده . وأبسط أنواع الاصوات تلك التي تسمى أشياء مفردة

وتشير الى أشياء قائمة بذاتها . وهذه هي أسماء الاعلام وأسماء الاشارة . أما أصوات الكلمات الأخرى ولا سيما أصوات الاسماء والصفات والحروف فمان كلية لتلك الهيئات اللغوية . وهذا ما يثبت الرأي القائل بان اللغة أداة تنقل الفكر من شخص الى آخر

واللغة بما فيها من مجموعات الرموز المتفق عليها (حروف الكلمات) : توجد للناس نظاماً محكماً لحفظ نتائج الفكر عند أبناء الاجيال الماضية . وانا عند ما نتعلم كيفية التخاطب بلغة من اللغات فانما نتوغل في اكتشاف اسرار ذلك التراث الفكري العظيم . أما الكلمات التي ننطق بها فهي التي تفك المغلق من مخازن الحوادث وتفرط عقودها فتمكننا من معرفة كل جزء من اجزاء الطبيعة الواسعة التي صرف الانسان جهوداً جبارة واستغرق قروناً متعددة لمعرفتها والاطلاع على كنهها . وليس لعقل فرد واحد ان يقوم بمفرده بتحليل وتمييز جميع الأفكار والمعاني المودعة في اللغة . ولهذا استعمل الانسان بعض الكلمات التي تشير الى مجموعات من الحيوانات المتشابهة أو من الأشياء المتماثلة والظروف المتفاوتة . وبهذا استطاع تصنيف ما يحيط به اصنافاً يسهل عليه بحثها . خذ مثلاً كلمة « طير » . فقد أطلقها على طائفة من الحيوانات تجمع العصفور والبط والنسر والغراب معاً . وتشير هذه الكلمة الى الصفات العامة التي تشترك فيها جميع هذه الحيوانات . وما من شك في ان هذا الاطلاق لم يكن مستعملاً عند الشعوب البدائية . فما هي لغات الشعوب المتوحشة غنية بالكلمات التي تعني انواعاً خاصة من الاشياء والحيوان والنبات ولكنها مفتقرة الى الكلمات التي تشير الى الطوائف من هذه الاشياء والحيوان والنبات . فهي لا تعرف مثلاً كلمة شجرة أو طير أو سمك أو غيرها من الكلمات التي تشير الى الصفات العامة في الاجسام .

ولنعد بالبحث شطر ناحية اخرى من نواحي اللغة . لا ريب في ان التفكير ظاهرة من ظواهر الارتياد والاستكشاف . ومع ان الكلمات تحفظ نتائج تفكير الاجيال الماضية وتنقلها الى الاجيال القادمة ، فان هذا النقل وذلك الحفظ يعرقلان توغل الفكر في مجاهل جديدة . فما زلنا مثلاً عاجزين عن التمييز بين أشياء أطلق عليها اسم واحد أو اشير اليها بكلمة واحدة مع اننا نعرف من امر الفروق الدقيقة الكائنة بينها ما نعرف . فمن من الناس يدرك أن الحوت والبقرة من طائفة واحدة او ان قردة العالم الجديد تختلف عن قردة العالم القديم ؟ اللهم الا من درس التاريخ الطبيعي وعرف شيئاً عن حياة الحيوان .

ويتضح مما تقدم ان لغة التخاطب تجمع بين كثير من الافكار الخاطئة والآراء الصائبة . وان الطفل الذي يتعلم التكلم بلغة من اللغات انما يتعلم التفكير الصحيح والتفكير الخاطئ معاً . وعلاوة على هذا فان لغاتنا ما زالت تحتفظ بكثير من التعابير التي كانت تمثل شعور الانسان

البدائي . فعندما نتفوّه بكلمات « دنيء » و« فظيع » و« جميل » و« مهيج » أو بغيرها من الكلمات المعبرة عن انفعالات الانسان فانما نعبر في الحقيقة عن ميولنا الانسانية دون الصفات التي تتصف بها الاشياء والظروف التي نقصد وصفها . ويتجلى هذا الامر في الكلمات المعبرة عن أحكامنا الخلقية ومقاييسنا السلوكية . فاكثر هذه الكلمات يعبر عما نشعر به من رضى أو سخط على الاشخاص الذين نحاول الحكم على سلوكهم متأثرين في ذلك بالضغط الاجتماعي الذي تفرضه علينا المجتمعات والذي أودعه الانسان في لغة تخاطبه . وتأثرنا بذلك الضغط هو في الحقيقة فعل منعكس شرطي شبيه بالفعل المنعكس الشرطي الذي أوجده بافلوف في كلبه

ولا يتسع لنا المجال للتطرق الى نواحٍ أخرى من نواحي اللغة كتغييرات معاني الكلمات بحسب اختلاف قرائن الجمل او البحث عن الروابط بين الكلمات — تلك الروابط التي تزيد من معانيها كما تزيد انصاف الانغام من شدة الانغام الاساسيــة في الآلات الموسيقية : مكتفين بما اوضحناه عما كان للغة من شأن عظيم في تكوين الحيـاة العقلية . ان اللغة نتيجة معقدة من نتائج التطور الاجتماعي تمكن الأفراد من اكتساب قدر ليس بقليل من العلوم والمعارف ويتعذر عليهم هضم ما اكتسبوا بدون هذه الأداة الفعالة . وقد حرمت الطبيعــة الحيوانات الأخرى هذه النعمة فجعلتها عاجزة عن استعمال أصواتها لجمع حقــائق الحياة ولنقلها من جيل الى آخر من أجيالها . وهذا في نظرنا أهم فارق بين الحيوانات العليا والانسان البدائي الاول

***

وقبل ان ننتهي من هذا الفصل نود ان نكرر للقارىء ان لقابلية الانسان استعمال أداة اللغة كما يريد « محاسن ومساوىء » . فهي تمكنه من نقل الاخطاء والأوهام كما تمكنه من نقل حقائق الحياة وحكمها . وهذا كما لا يخفى معرقل لتقدم العلوم ولتصور المعرفة . ويعزى السبب في وجود الكثير من الأباطيل والاوهام بين ما ورثناه من علوم وآداب وفلسفة الى ان اللغة واسطة لنقل تعابير انفعالاتنا مع المعاني الكلية للاشياء والظروف « أي أنها تنقل المعاني المعبرة عن أغراضنا الذاتية مع المعاني المستمدة من تمتعنا بالاشياء وبالظروف التي تحيط بنا . وتدلنا سيكولوجيا اللغات على ان جميع الابحاث والعلوم تتأثر بنفسيات المشتغلين بها اللهمَّ إلا العلوم الرياضية التي استعاضت عن الكلمات برموز صمٍّ لا معاني لها » تعجز عن نقل الانفعالات النفسية من شخص الى آخر